ميفـــع عبد الرحمن

الحيلولة دون انيسة

عيناها اتجهتا نحو السقف ، وهي تخاطبه :

ـ الام ذاتها صغيرة .. عمرها لا يزيد على الثلاثين ، وعمر ابنتها اربعة عشر عاما ، فكم كان عمرها هي عندما تزوجت ؟ الم تكن دون البلوغ كذلك !

لكن ابي لم يجب ، بل نظر للسقف حيث كانت عينا امي ، وعاد بهما معه ، ثم وضع عينيه فيهما بقسوة .. ففهمت ، واكتأبت لخيبة مسعاها .. لولا انه سرعان ما حاول تبديد غمها :

ـ لدينا نقود ، ولله الحمد ، ولدينا حائط وماشية .

فاحسست ان ابي يوعز لي بقوته هو ، في حين أن خالي كان قد انطلق الى الجبل ليحجز لي الفتاة بخمسة دنانير من حسابي الشخصي .

كانت ستة شهور كاملة قد انقضت ، منذ تم تثبيتي كعامل زراعي ، بعد ان امضيت ست سنين ـ تمثل الربع من عمري ـ وانا رهين دائرة العمال الموسميين ـ اتقاضى اجري بحساب اليومية البخس ، واعاني الامرين عند وقوع خطأ بسيط في حسابات الموظفين.. وخلال تلك الشهور الستة استطعت توفير مبلغ ـ لم أكن اعلم بمقداره ، الا بالتقريب ، لان امي كانت امين الصندوق الذي اتعامل معه . يقول ابي ان لديه نقودا.. انه لا يتبجج في الواقع ، ولكنه يرمي لان يقول شيئا اخر، ندركه أنا وامي بالبداهة .. وانا اعمل واوفر لهذا الغرض ، لكي تكون لي نقودي .. واقول انه اذا تحقق الغرض ، استطعت الايعاز لابي بأن يريح نفسه من عبء التسلط علينا ،رغم شعوري بأن هذا الايعاز سيترنح كثيرا بين موارد(القات) العالية وبين ظلال القبور التي يطيب لقريتنا الاسترخاء الطويل عندها ـ وخاصة بعد وجبة الغداء .

وبدافع تلك الرغبة في الانعتاق من والدي ، كنت اعمل واوفر .. ومن ذلك التوفير اقتطعت الدنانير الخمسة للحجز على انيسه ..

ـ يا انيسه ، جاءك ابن حلال .
ـ هل تعرفه امي ؟
ـ انه الذي اشترى منك السجائر ، في تلك الجمعة، وانا بالمسجد .
ـ لا اذكر .. اليس جحافيا ؟
ـ كلا انه من الازارق .. وهو من عائلة كبيرة هناك ، لها سمعة واسعة في الرزق ، وسمعة حسنة في الاخلاق .

* * *

بعد الحجز ، صارت الايام تمر بطيئة تحت وطأة الانتظار لانيسة من جانب ، والتهافت في التفكير ببنات عمال التنظيف والطبالين من جانب آخر.سعيده ،آمنةوقبول ..كلواحدةمنهن اسوأ رائحة واشد شبقا من الاخرى .. هكذا يقول زبائنهن ، ويستطردون في القول انهم يحسون عند الاتصال بان ما يتحرك تحتهم ليس الا (مبولة) ـ بكل عطن الروائح الصادرة منها ، وكل اشتعال الطاقة الكامنة فيها ..لكنهم ـ يضيفون ـ مضطرون لافراغ شحناتهم ، التي يفرزها القمح والقات ، بهذه الطريقة البائسة الممكنة .

قلت لابي :

ـ هذه خمسون دينارا .

وامسكت به من شعر الذقن، واردفت :

ـ اريد ان اتزوج .

فصدني .. ثم عاد وتناول النقود في الوقت ذاته ، واوضح لي :

ـ الزواج يكلف كثيرا .. وانت لن تتزوج امثة طبال .

وباع بقرة وعجلا ، واستدان مائة دينار ، وذهب الى جحاف ، يصحبه عمي وخالي . وهناك التقى بخالي وخالتي .. وكلاهما كان سبق في الترتيب لعملية الحجز على انيسة .. لكن ام الفتاة اعتذرت عن تزويج ابنتها باكرا ، وتعللت بعدم بلوغها ، وانها لم تتخط الرابعة عشرة من العمر .

ذات يوم ، جاءت خالتي لزيارتنا.. وكنت في الدار ، وما كان بوسعي ان اتمهل من ملاقاتها والجلوس اليها مع امي وشقيقتي الكبيرتين .

تحدثت خالتي في مواضيع عديدة ، ثم بدأت تعوم مازحة حول الزواج .. وكانت الزيجات الحديثة في قريتها وقريتنا هي الخندق الذي تمترس فيه مزاح خالتي .. فقررت الانسحاب تفاديا لرمياتها الصائبة في هذا الهدف .. فهي اذا مازحت حول تزويج واحدة من شقيقاتي ، فان تلك المسكينة التي كانت موضوع المزاح تصير زوجة شاءت ام ابت ، أستبشرت ام انزعجت .. وبهذه الطريقة تزوجت ثلاث من شقيقاتي ، وبسبب من الطريقة عينها كنت اعلن رفضي القاطع للزواج ، وابدي تعففي عنه - بشتى الاساليب والحيل .. بالخجل البريء ، بتقطب الجبين ، بتكشير الوجه ، بالامتناع عن الحديث او الاكل أو المساعدة في قطف الثمار .. كل ذلك لاني كنت انكر على نفسي - فيما بيني وبينها فقط - اي استعداد للوصول الى التي ستأتي زوجة لي - بأقدام شخص اخر ، كائنا من يكون . وكان رفضي يؤخذ مأخذ الجد - من جانبهم - وهذه ميزة ينعم بها الذكور الكبار على الصغار من جنسهم في قريتنا ..مع اني كنت احلم بالزواج في اليقظة ، وكنت اود - لو استطيع - اغتصاب كل بنات القرية . اما حين شرعت خالتي تدب الى الزواج - مازحة ، كنت اهم بالانسحاب ، لكنها سبقتني في ذلك ، وهي تبسط ذراعها وتطوقني بقولها عاتبة :

- كبرت ، وكبرت ! ولا لماذا لا تزورنا ؟ او انك تستبعد جحاف ، او تستصعب صعوده !

فبدا جليا انها كانت تبيت للامر باعتناء بالغ ، وقد تمكنت بدقة من الهدف ، بحيث لم اجد بدا من الاعتذار عن تقصيري تجاهها والموافقة على تلك الزيارة المرجوة .. او - بالاحرى - الموافقة على تسهيل مهمتها في بلوغ الهدف ، في تزويجي ، في حل الهم الذي يكبر معي .. وا ، سذاجة متناهية ، ارفض عطف خالتي علي من اجله ، ومعونتها لي في حله .. كنت قد ضقت ذرعا بعزوبتي وبنفسي وبافكاري البلهاء عن الزواج واختيار زوجتي بطريقتي الخاصة .وكانت خالتي تبيت باعتناء بالغ لهذا الامر .. فما ان انتزعت موافقتي على زيارتها حتى كانت تحكم طوقها حولي ، وتسألني :

- متى ستتزوج ؟

فابتسمت بخجل .. واجبت على السؤال عمليا - عندما ذهبت لزيارتها في دارها بجبل جحاف . كان من غير المجدي ان افتعل المكابرة ، والاصرار على الرفض - بوهم اني اخطط من جانبي كي اصل الى ذلك الهدف بجهدي الشخصي ..انني لست وحيد زماني في قريتي ، فأخرج على مألوفها الذي لاذت به دهورا طويلة . هكذا كنت اقنع نفسي بقبول الطوق الذي احاطتني خالتي به ، وهي تجمع متعمدة في عنابها بين تذكيري بالكبر والرجاء بزيارتها ، وتربط بينهما وبين زواجي - لتضع اول قدم لها هي في الطريق الطويل نحو هدفي .. أنا .

* * *

قالت خالتي :

- هناك طالبة تمر كل صباح قريبا من الدار ، ذاهبة الى المدرسة . وما عليك الا الجلوس عند شجرة (الصلب) حتى تمر فتراها .

فتركت الشاي .. ونهضت . كانت الساعة السادسة والنصف ، وانتظرت ساعة كاملة حتى اقبلت الفتاة .. وكانت خالتي واقفة بباب دارها تومىء لي باتجاه القادمة المقصودة .. لكن هذه ما ان رأتني حتى نكصت على عقبيها ، كأنما لتنجو من مجنون متوحش في الطريق .. وانعطفت خلف دار خالتي ، فأخليت مكاني عند الشجرة ، وسرت في الاتجاه المعاكس لاتجاهها - حيث قاطعتها وجها لوجه ..لاعود ممرورا بالندم . ليتني لم ادع الشاي ! ! ليتني لم انتظرها ! ! ليتني لم الاحقها ! ! اما النتيجة التالية لذلك ، فقد زخمت بالحزن والحنق .. اذ شاع في القرية كلها اني سأتزوج بتلك الفتاة ، وتناقلت الجبال الاشاعة من قرية الى اخرى ، حتى رددت صداها جبالنا في الازارق .. ثم لم تلبث خالتي ، حتى كانت تدعوني لمشاهدة فتاة على سطح دارها.

سالت خالتي ، وانا لا أرى الفتاة جيدا :

- ما بها ؟

- هل تعجبك ؟

- لا أراها تماما !

على ان خالتي لم تكن تعدم الحلول العنوية السريعة لمواجهة ما يطرأ من الامور .. وبأناة وثقة اقترحت ان اذهب الى دكان والد الفتاة لشراء اي شيء ، مؤكدة بان الفتاة ذاتها ستخرج - ظانا ان الاب في المسجد لصلاة الجمعة ، والام عند البئر بجلب ماء وستتأخر ، ولا احد في الدار سوى الفتاة واخواتها الصغار .. والدكان بمحاذاة الدار .. فذهبت بمشيئة خالتي . كان الدكان مغلقا .. ناديت .. ناديت كثيرا - باسم صاحب الدكان ، والد الفتاة . وكان ان حدث ما توقعت خالتي عن فهم دقيق .. فقد خرجت انيسة بالفعل ..بهرتني .. ذهلت بها .. لم اصدق ان لديها ما يقل عن عشرين عاما . ناولتني خمس سجائر ، وتناولت مني النقود وقلبي معا .. فهالني ان افارقها سريعا . حاولت مماطلتها ، لكن بارتباك وفجاجة . قلت لها متلعثما ما معناه :

- خمسة عشر فلسا للحبة ! هذا كثير .. والعلبة بكم تبيعينها ؟

لكنها ظنت السؤال ، قالت خالتي ، تمهيدا لمغازلتها .. فلم يكن عجيبا ان ترد بقسوة وحزم :

- تريد ! او خذ نقودك .. لا نبيع عليا كامله .

وكان صائبا تماما،قالت خالتي ، ان اوافق بدون تردد .. لاخطو انا الخطوة التالية لخطوة خالتي ، فاضع - من حسابي الشخصي - خمسة دنانير بيد خالي ليحجز لي تلك الفتاة - التي كان العقد بها خطوة طويلة تعادل ضعف المسافة الى الفتاة ذاتها ، بل واكثر ..وكان خطوة بطيئة استظل فيها عذاب الانتظار للعرس ورعب السقوط في مبولة محترمه . كان العقد خطوة مبثوثة بالقهر والطغيان .. وكان ضروريا اكثر من الزواج ذاته . وبالرغم من ذلك ، تملص والد الفتاة بحجة ان ابنته صغيرة لا تعرفها هو الحيض حتى .. فتصدى له والدي بمنطق لا يهمه ان البنت تحيض او لا تحيض ، وبذل جهدا كبيرا لاقناع والد الفتاة بالموافقة على العقد .. فعد هذا الاخير وتذرع بزوجته وعدم موافقتها هي .. لكن ابي لم يتح له الفرصة في الاستجداء بهذه الذريعة الواهنة ، واشار عليه اشارة مباشرة بان الكلمة الاولى في الزواج دائما ما تكون للاب ، وان على الام الكف عن فرض ارادتها على الرجل .لماذا ذلك العناء من جانب والدي - والفتاة لاتزال دون البلوغ ؟ كان الدافع لذلك ما نكشفت عنه انيسة في المطبخ وفوق البئر وبين ماشيتنا بعد الزواج .. وانا لم اكن افكر حينها بالاطفال ، فهناك ما هو اهم منهم - يمكن ان يتم بدونهم .. أو يقع المحذور ، فتستهويني المباول العطنة .

* * *

وتقدم والد الفتاة خطوة من جانبه ،حين قال لوالدي :

- ابنتي سعرها غال .. ودنانيرك هذه ليست بثمن اللبن الذي شربته .

فترددت انا بين انيسة والبقرة التي بعناها .. ولم استطع التقدم بلامام خطوة واحدة .. فالبقرة كانت ايضا غالية هي الاخرى ، وكانت تدر لبنا .. اما ابي فقد اوقف تقدم والد الفتاة بدوره ، وهو يجيبه بانفعال :

ـ هذا كثير .. مائتا دينار ! ! مبلغ كبير !

وكنت اراوح في مكاني ـ اتخيل البقرة وانيسة .. وقد تلاشت من ذهني صورتها التي بهرتني وشدت قلبي اليها . واوشك والدي اعانتي على تصحيح وضع انيسة عندي ، وازالة التشويه الذي الحقه والدها بملامحها .. كان ذلك حين استنكر والدي غاضبا :

ـ هذا يخالف القانون !

فاكفهر وجه والد الفتاة وسال والدي :

ـ بكم يقول القانون ان اعطي ابنتي لابنك ؟

وكانت السخرية ترن مجلجلة في كلماته .. فتعثرت وسقطت بين قدميه ، وهو يراوح بحركة سريعة في انتظار دفعة من امي ليتقدم بها او .. ليرجع الى الخلف ، وينقذني ـ في اي من الحالتين ـ من بين قدمي والد الفتاة .وتحرك والدي ليدفع والد الفتاة .. الى الخلف ـ محتدا :

ـ انت لن تعطينا ابنتك بالمجان .. وتكفيك فيها المائة دينار ، حسب القانون .

ـ مائة دينار ! ! لن نختلف .. لكن ليس الان ، بل بعد سنتين، عندما تبلغ البنت سن القانون.

وانتفض ليخرج .. وانتفضت انا من تحت قدميه .. وقد امتزجت انيسة بالبقرة ، او البقرة بانيسة ـ في ذهني .. كانتا معا فيه . لكن ابي كان قد باع ماشيته ليزوجني .. وابي يعتد بماشيته ويستمد منها القوة علينا ! فهل والد انيسة يعتد بها الان ، ويريد ان يستمد منها قوته على والدي ؟ هذا ما كان واضحا .. لكن انيسة ليست ماشية! وتدخل احد الحاضرين ـ الذين كانوا طيلة الوقت يهللون اما لوالدي او لوالد انيسة ، بحسب انتمائهم العائلي او القروي .. فالذين من عائلة ابي يؤمنون وراءه وحده ـ وان لم يكونوا من قريتنا .. والذين من قريته يؤمنون هم ايضا وراءه ـ وان لم يكونوا من عائلتنا . كذا الحال بالنسبة للذين من عائلة وقرية والد انيسة . قال ذلك الذي تدخل في التو ، وهو جعافي ، يسأل والد الفتاة :

ـ كم تطلب نهائيا ؟

وشدد النبرة في كلمته الاخيرة .. فاجابه والد الفتاة بنبرة مشددة ايضا :

ـ مائتي دينار .

ـ نهائيا ! !

ـ بدون ان ينقص فلس واحد .

فاتجه السائل لوالدي :

ـ وانت .. كم ستدفع ؟ كم تستطيع ان تدفع ؟

ـ ما يقوله القانون !

ـ مالك وللقانون الان.. القانون شيء ، وابنك شيء اخر .

اما القانون واما الستر .. اما القانون واما البنت .

رميت بنفسي في اوار المعركة ، وانا ارتعش كمحموم ، وقلت بصوت مفكك ضعيف من الخوف والخجل :

ـ القانون لي ولها ..

فاسكتوني بخشونة ، ونفخوني كريشة ، فانكمشت على ضعفي وخوفي وخجلي ، واكتفيت بالبقاء معهم متفرجا ومستمعا فقط .. دون ان يشغلني عن ذلك سوى العرق الذي تصبب من جبيني ، ورحت اجففه. حتى بقية العبارة ـ التي كنت قد استجمعت فيها كل قوتي ،وتفجرت بها حرارتي ، وصرت ارتعش منها ـ كانت قد ضاعت مني بين افواه والسنة واسنان الجميع .. وهم يتحدثون، ويفعلون ، ويتراشقون بالحجج والكلمات .

وتردد والدي قليلا ، قبل ان يجيب على سؤال الرجل .. ثم قال بهدوء ، يكلم الرجل ذاته :

ـ اريد ان يخفض شيئا من المبلغ . انه ابسر مني .. لديه حائطان ودكان ، ولا تزال لديه خمس من البنات ـ سيفتح الله عليه بهن مع اصهار ميسورين اكثر .

وبعد جدل واسع ، ومناقشات ثنائية جانبية ، واخرى جماعية مفتوحة .. وافق والد الفتاة على تخفيف خمسة وعشرين دينارا ، مقابل تحملي شراء خاتم وسلس وقرطين للعروس .. فصاح ابي محتجا . فاستغربت انا لذلك .. لماذا وضع والد الفتاة مشروع الذهب بعد قبوله خفض الدفع مباشرة ؟ ولماذا اعترض والدي على المشروع ؟ كان كل شيء ، وكل شخص ، وكل كلام يقبل سريعا لان يختلط بعضه ببساطة عجيبة. والد انيسة يخلط بينها وبين الذهب ، ووالدي هو الاخر يخلط بيني وبين هذا الذهب .. الحاضرون من جهة والدي يخلطون بين الدفع وبين القانون ، والحاضرون من جهة والد انيسة يخلطون بين جشعه وبين الجنس .. فاختلطت انا مع والدي ، واختلطت انيسة مع والدها .. واختلطت عندي في الاخير هذه المناورات والزوابع بالزواج . من الذي ستتزوجه انيسة ؟ من الظاهر انه والدي .. من الذي ستنجب له انيسة ؟ من الظاهر انه والدها. هذا ايضا جزء من الخليط العجيب اياه .. فمن الظاهر ايضا ان والدي سيتزوج والد انيسة .. ومن الظاهر ذاته ان احدهما سيضاجع الاخر ، والاخر سينجب ..وبالمشروع الاخير والاعتراض عليه ، تلكأت الصفقة من جديد، وثارت زوابع الجدل، وتكثفت مناورات الهرف والتلفيق والافتراء والاستهتار بي وبالفتاة معا.. حتى خطا والد الفتاة خطوة بين التقدم والتراجع قائلا :

ـ نتبادل التنازل .. واحدة مني ، وواحدة من ابي الزوج .

فبارك والدي الخطوة ـ وان على مضض .. لتتقدم والدتي ، فتضع قدمها بين جملة الاقدام في الطريق الى انيسة ، وترتب بمزاجها هي دفعتين من الملابس ، تم حمل الدفعة الاولى منهما قبل العرس ـ وكانت مكونة من ثوبين ومنديل رأس ومازر وجورب .

قالت امي بصدد هذا الاخير :

ـ الجورب يجب ان يكون غاليا ، لانه اول ما يقع على عيون الرجال.

فاسهمت بدورها في الخلط بين الجورب والذهب والبقرة وانيسة ـ من ناحية ، وبين العيون والنقود من ناحية ثانية . الغلاء والرجال وعيون الرجال .. الغلاء وانيسة وقدما انيسة .. الغلاء والبقرة وضروع البقرة .. الغلاء والذهب وضمانات الذهب .. الغلاء الجورب وعقل امي. الغلاء والرجال وامي وانيسة والذهب والبقرة والجورب والعيون والاقدام والضروع والعقول كلها تختلط ببعضها ، وتتكوم في كتلة رخوة

ممزوجة بعصارة القات ـ تندحرج بين الاشداق وبين ظلال القبور ـ سواء بسواء في سهل الازارق او جبل جحاف .

* * *

كنا ـ لقيلولة يوم العرس ـ قد هجزنا بعشرين دينارا خطين كاملين من محصول القات في احد الحوائط القريبة منا ، وقد صادف القطاف فيه يوم العرس بالتحديد .. واضطرتنا الزيادة المستزيدة من الضيوف الى توصيل مبلغ شراء القات في ذلك اليوم لحد خمسة وثلاثين دينارا .. ولم يكن ذلك الا الخطوة السابقة للخطوة قبل الاخيرة باتجاه انيسة .. وقد سبقت تلك الخطوة خطوات كثيرة ضاعت معالمها في مهب رياح القلق والتعب ، خلال الشهور الستة التي اعقبت الحجز على انيسة ـ بين الانتظار والتهيؤ لها ، وبين التفكير بالفرار من الهم الاكبر الى مباول بنات عمال التنظيف والطباليين .. بينما لم اختلس من الطبال ـ في الليلة السابقة للعرس ـ سوى طبله فقط .. وكنت قد ايقظت العازبات من شقيقاتي ، واخذت ادق على الطبل انغام الفرح ، وشقيقاتي يرقصن . كان الفرح شجرة باسقة خضراء ـ لا تشبه شجر القات ـ وهي تنمو وتزهر وتثمر في قلبي .. وقلبي كان سهلا فسيحا ـ كالازارق ـ لكنه سهل مفلوح ومزروع ومروي بالفرح .. وكانت الجبال المحيطة بالسهل ، عروقا حية تنبض بانغام ذلك الفرح بقوة ، فتوقظ القرية كلها .. وتتعالى من هنا وهناك اصوات منفعلة حقيقة .. زغردة امرأة ، بكاء طفل ، نباح كلب ونهيق حمار . كلها تشاركني ـ وان بطريقتين متباينتين .. فالبكاء والنباح والنهيق تخز في قلبي ، وتنفضني لنشازها .. اما الزغرودة فكنت استقبلها بنغم رقصة جديدة ، ابعثه الى النجوم والجبال فتعيد صياغتها لتصب امطارا وسيولا على حقول القمح وحوائط القات وسطوح الديار وآذان النيام .. حتى قالت الديوك كلمتها ، فأوقفت الطبل والرقص ، وذهبت لايقاظ الذين صمم النوم على حرماني من مشاركتهم في الربع الاخير من تلك الليلة البهيجة .

كما اننا ـ لفداء يوم العرس ـ كنا قد ذبحنا بقرة وغنمتين ، لتتبقى لنا بقرتان ورضيع ـ بعد البقرة التي بعناها والبقرة التي ذبحناها ـ وعدد طيب من الاغنام والخرفان . زد على البقرة والغنمتين، ذبحنا كذلك جديا اهداه لعرسي أحد الاصدقاء ـ ردا على هدية مماثلة سابقة مني .. وبما لا مزيد عليه ، كان الضيوف يتدفقون علينا .. فتمدد في جسدي كابوس شرس اثخنني بجراح القلق ،وجعلني انقل خطواتي بتثاقل شديد .. من اين اتى كل اولئك الضيوف ؟ وكيف اتوا ؟ هذا ما لم اكن اعلم شيئا عنه ، كما لم اكن اعلم مقدار المبلغ الذي وفرته لدى امي قبل الزواج .. ربما ان امي كانت على صلة بدفقات الضيوف الهائلة تلك . الاول ربما .. وهو مجرد احتمال . غير ان كابوس القلق ساعد على اشاعة الرضا في نفسي ، حينما استعجل الرجال من اقاربي امرهم، وشرروا التبكير باحضار العروس من بيت ابيها ـ رغم ان الوقت كان لا يزال مبكرا جدا في الساعة الثانية بعد الظهر، وانا ما زلت في بدء شعوري بالالفة لهؤلاء الضيوف ـ اثناء قيلولتهم .. فحز ذلك في نفسي ـ من جانب آخر ، وانشطرت نصفين .. لم اكن امضغ القات ، كما ينبغي ..وكان تخدير القلق اشد من تخدير القات في جسدي ، ولو استوفيت حقي من القات لتغلبت على القلق ، ونسيت كل الخسائر الفادحة منه ـ السابقة واللاحقة على السواء . لكن الضيوف كانوا موزعين على غرف عديدة بدارين كبيرتين من ديار قريتنا .. وكان يجب علي الطواف بالجميع لبث الانس والانشراح فيهم .. في حين ان الرضا بتلك الدعوة المتعجلة لجلب العروس ، كان منسجما مع توقي لرؤية انيسة والاستكانة اليها ـ بعد ذلك المسير الشاق والطويل نحوها هي ، كما كان ذلك الرضا منسجما مع توقي للخلاص من متاعب العرس وكوابيس تلك المتاعب ـ الرهيبة .. وكانت تلك لحظة لذيذة من لحظات هبوب رياح القلق والتعب ، تعمق فيها احساس بالتناصف بين الرضا وعدم الرضا ، حتى كان الكل من اقاربي يقرر بالاجماع الانتظار الى الرابعة عصرا ، وانا اود .. ولا اود ـ ذلك الانتظار ـ في آن واحد ..وليس لي الا ان اتسمع وانفرج فقط ، وانتظر العروس .. والعروس ملفوفة جيدا من ام رأسها الى اخمص قدميها .. فلا لفافاتها ولا وجلي كان يمكن لها ان تتعاطى بالمسرة مع نظراتي اللصوصية الى انيسة في ليلة زفافها وسط تل من الصدور والرؤس .. وتساءلت .. هل البسوها احد الثوبين ؟ هل البسوها المازر ؟ هل البسوها الجورب ؟ كانت اللفافات المكدسة عليها حائلا بيني وبين ما اشترته امي لعروسي .. وتبين لي ان هناك فروقا كبيرة بين انيسة وبقرتنا المباعة . فنحن لم نكن نلف البقرة هكذا .. وعندما نضجت للجنس ، سرنا حقا ، لكن دون ان نقلق ..دون ان نارق .. ودون ان نقيم الجبال ونقعدها .. ودون ان نضطر للبحث عن ابي البقرة وامها واستشاراتهما فيما اذا كان يحق لابنتهما ان تشبع من جوع مضر بها، وان تلد لنا عجولا ننتفع منها .كل ما فعلناه هو ان عرضنا عليها عددا من الثيران ، فاختارت برغبتها الثور الذي استسلمت له بطمأنينة تامة ، فلقحها ، منصرفة عن بقية الثيران ـ تتناطح فيما بينها .. اما انيسة فقد اكتفت باللابس ، واكتظت غرفتها بحشد من النساء ، وامها كانت تتباهى وتناديني لاضع البخور في مجامره بغرفة عروسي ـ لتراني نساء الجبل ـ فيتفكك بدعوتها تلك ما بقي متماسكا عن مفاصلي، واكاد ان اقع فوق مفارس السيقان المدثرة اللينة والدافئة التي تملأ غرفة انيسة . كنت احس جسدي تغمره الثقوب، تنفرز فيه سهام عيون شرهة حالمة ، تثقله همسات مثيرة للرعب ، تشبه اشواك النباتات البرية الخاصة بتنظيم الحيض او الاجهاض .. لكن حسناء واحدة ـ على استعداد لابتلاعي بكافة ملابسي ـ لم تكن لتحظى بلمحة عين مني .. كنت قد تركزت في انيسة ، وامتزجت بها .. ومعها تجاوزت جذع الجدي المذبوح عند عتبة الباب في دارنا ..وكانت تلك هي الذبيحة قبل الاخيرة .. الخطوة قبل الاخيرة . وحل عني ما كنت اتوهمه الهم الاكبر في حياتي .. وما كان حلوله عني سوى بداية لعلاقة مهمومة بذاتها بيني وبين التي امست زوجتي ، بجرة قلم ، وكمية هائلة من النقود والذبائح والقات ، ومتاعب اكثر هولا ـ بحيث ان الفرح تقلص ، وصار خرقة بيضاء تنتظر الدم الذي سيسفك عليها ـ حلالا .. والعرس تقلص، وصار عجينة من لحوم المواشي المذبوحة ودمائها وعظامها واغصان القات واوراقه وعصاراته .. وانا تقلصت وصرت عريسا فقط انتظر العروس لتكشف عن نقابها، وتحل عنها اكداس اللفافات المكتظة فوقها .. وانيسة تقلصت ، وصارت نقابا اسود ولفافات من الخرق ..والغرفة تقلصت وصارت ظلف ماشية او قطعة نقدية .. والازارق كلها تقلصت ، وصارت قبرا داكنا تنمو عليه الحشائش والاعشاب والاشواك . لكن العروس ابت ان تكشف النقاب عن وجهها ، وقد انفردنا في الغرفة التي خصصتها لنا والدتي .. واصرت على ان ادفع اولا ، فنبهتها بصوت خفيض :

ـ سيطالبونك في الصباح بدم البكارة !

فبكت .. وفي وجع البكاء ما نسيت ان تعيد طلبها بدفع خمسين

دينارا لتكشف عن وجهها .. فاغريتها بالموافقة ، لتسكت .. وبالفعل سكتت . .ومدت يدها .. حسبتها لانت واسترخت ، فامسكت بيدها .. لكنها سحبتها مني بعنف ، وبدت جامدة كالسرير ،خالية تماما من اي احساس بوجودي الى جوارها . ادركت اني غريب عليها ، وان هذا هو الشعور الطاغي فيها. حاولت ازاحة النقاب بيدي ـ جزافا .. فابتعدت عني .. واعدت عليها القول :

ـ سيطالبونك في الصباح بدم البكارة !

فزاد بكاؤها .. وزادت مطالبتها بالنقود . احترت في الامر .. لا مناص من ان ادفع . لكن المبلغ كبير ! ! وها هي ستسترد ضعف المبلغ الذي تنازل عنه والدها من الدفع واعتبر الحلي بديلا عما تنازل عنه . تظاهرت بالغضب ، ومددت يدي لانزع النقاب عن وجهها .. فا بتعدت اكثر . كاد صفويتنكد، لولا اني قبلت بالامر الواقع ، وخضعت للدخول في مناقصة مع عروسي ـ حتى رسونا على الخمسة عشر دينارا .. اخرجت المبلغ ،وسلمتها اياه .. لم يكن في حوزتي سوى عشرين دينارا ، بقيت منها خمسةدنانير ـ بعد خصم كلفةكشف النقاب عن وجه انيسة ـ التي ازاحت غطاء وجهها عنه ، ليبين عن خدين مبللين بالدمع .. فاشفقت عليها، واحسست بجذور حبي لها تضرب غائرة في اعماق القلب وتتشعب في ثناياه ، واندفعت لاحتضنها .. لكنها استطارت شعاعا من الخوف ، فكررت قولي لها بهمس رقيق :

ـ سيطالبونك في الصباح بدم البكارة !

لتنظر نحوي بعينين مذعورتين .. وكانها تواجه ضبعا متوحشا سيفترسها . اسقط ذلك في نفسي .. وصار مستحيلا عليّ ان اطالبها بشيء البتة ، وبدت هي اكثر بعدا واصعب منالا عما كانت عليه قبل العقد بها .. لكن ذلكلم يدم طويلا ، فقد كنت اتصبب عرقا بعده بقليل ـ حين اكتشفت نفسي فوقانيسة ، وهي تتلوى تحتي بحرقة مؤلمة وتتوسل وتئن كالمذنوع وتدافع عن نفسها باستماتة . ثم عدت لاتذكر كيف خلعت ثيابها .. فلم استطع . كل ما استطعته هو تذكر ذلك الفشل الذريع الذي سحقت به في ثلاث ظلمات متقطعة ـ منذ اويت بصحبة انيسة الى الفراش ،وحتىمطلع الفجر . لكني ـ مع ذلك ـ كنت قد عقدت العزم على اجتياح موقد الاشتعال الناشم في موقع العروس ، في الليلة التالية .. وقد كنت حينئذ عاجزا حتى عن مقاومة النوم ، وجسدي كان مسكوا بكوابيس القلق والتعب والفشل ، وظلال قبور القرية .

عدن

دار الاداب تقـــدم

محمد علي شمس الدين

في مجموعته الشعريـة الاولى

قصائد مهربة الى حبيبتي آسيا

● « قصائد مهربة الى حبيبتي آسيا لوحـة فنيةمؤلفة من اربعة مقاطع يتلون فيها الرمز بمنظور تراثي عصري وواقعية جديدة وتجريد يجعل اللفظة الشعريةذات ابعاد وعمق. حيث يتحول المجاز فيهـا الـى خصوصية مونولوجية تتابع فيها الصور تتابعا عفويافيهبراعة واصالـة . وهـو مجاز منفوم قائم على تعادلية صافية بين اللغة الشعرية في القصيدة وبين رصيدهاالصوتي الموسيقي . فهـو مرهف كالبكاء ، وشمسه مزاجيـة وهواه ازرق .. »

الدكتور عناد غزوان في كلامه على قصائد مهربة / الربد الشعري الثاني نيسان ٧٤ .

● « قصيدة فاتحة للنارفي خرائب الجسد » حشدغريب من رموز الرعب والتمزق والاحتراق . وفي هذا الحشد لا يعطينا الشاعر مجالا للتوقف لكي نعرف مانحن فيه بـل يسير بقـوة دون توقف متهما مجموع الطبقات في اقتسام اشلاء العالم ، وبالمشاركـة فـي جريمة اتتهاك الانسان وتوزيع اشلاء جسده علىبعضهم البعض . والقصيدة تظهر طاقة شعرية فريدة ، طاقـةتترجم شعريا ، وعن قهم ، العصر الحاضر والتراث الانساني ، بكل البؤس واللاانسانية والتمزق المتواجد فيهـا » .

جبرا ابراهيم جبرا في كلامه على قصيـدة فاتحة للنار . الملتقى الشعري الثانـي ١٢ / ٧٤ .

صدر حديثا